عادة الختـــان

أصلها وتاريخها وانتشارها

بمناسبة المنوزين والاسلام

بقلم الدكتور مأمون عبد السلام

إنه لمن الصعب على المشتغلين بدراسة طبائع الأمم وأحوالها أن يهتدوا الى تحديد العصر الذى بدأ فيه الانسان يختتن . وهم لا يزالون فى حيرة من الدوافع التى حملته على تلك العادة ، فتقول فئة منهم إن بعض القبائل لجأت الى الختان كعلامة تميز بها نفسها عن سواها كما يلجأ بعض قبائل السودان الى تشريط خدودهم أو الى اقتلاع إحدى أسنانهم القاطعة . ويعلله آخرون بأنه وقاية سحرية ، ويظن غيرهم بأنه عقيدة دينية يضحى الفرد بمقتضاها جزءاً من جسمه فداء عن نفسه وتقرباً الى ربه . ويعتقد آخرون بأنه ميزة ارستقراطية

وعادة الختان عريقة فى القدم ، يدل على ذلك انتشارها فى أنحاء قاصية من المعمور بين أجناس من البشر قد فصلت الطبيعة بعضهم عن بعض منذ أحقاب سحيقة . فلا تكاد تخلو قارة من شعوب تمارس تلك العادة ، فتراها بين قبائل السود من سكان استراليا ، كما أنها توجد بين قبائل الجالا والفلاشه ، يهود الأحباش ، وبين غيرهم من قبائل الحبشة ، وعند قبائل البانتو والمساى والكفار والناندى بافريقيا ، وقبائل الأوتاهيت وسكان جزائر التونجا والبولينزيا وجزيرة فيجى وكاليدونيا الجديدة

ولما اكتشف الأسبانيون أمريكا منذ أكثر من أربعمائة سنة مضت وجدوا عادة الختان منتشرة بين أقوام الناهواطل وبين أمة الأزتيك سكان بلاد المكسيك القدماء كما شاهدوها بين سكان حوض نهر الأمازون بأمريكا الجنوبية

وكان قدماء المصريين يختتنون من عصور غابرة قبل سنة ١٤٠٠ ق.م . فتراهم قد صوروا ولدين يختتنان على جدران معبد خونسو بالكرنك . وقد ذكر التاريخ أن مصر فى عهد مرينبتاح قد غزاها قوم من سكان بحر الروم كانوا يختتنون

والختان من مميزات الشعوب السامية وخاصة اليهود منهم ، فقد كان بنو اسرائيل من قديم الزمان يختتنون الرجال وقت زفافهم ، فاذا أظهر العريس أى خوف أو وجل كان ذلك دليلاً على نقص فى رجولته فتهجره عروسه وتلبسه المعرة . وقد علمت من بعض المعمرين أنه كانت العادة فى بلدة التلين بمركز منيا القمح أن يختتن الرجل يوم زفافه

وقد فرض الله سبحانه وتعالى الختان على سيدنا ابراهيم عليه السلام وعلى ذريته وعبيده ، وكان قد أمره بأن يغير اسمه من إبرام إلى إبراهيم لأنه سيكون أبا للبشر . فقد جاء فى سفر التكوين (١٧ ÷ ٢٣ — ٢٧) : « فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت ابراهيم وختن لحم غرلتهم فى ذلك البيت عينه كما كلمه الله ، وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته ، وكان اسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته ، فى ذلك اليوم عينه ختن ابراهيم اسماعيل ابنه وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه »

ويختن اليهود أولادهم فى اليوم الثامن من ولادتهم كما ختن ابراهيم ابنه اسحق فريضة الله عليه . فى سفر التكوين (١٧) ابن ثمانية أيام يختن كل ذكر فى أجيالكم

وقد قام اليهود بهذه الفريضة إبان أسرهم فى أرض مصر ، ولكنهم أقلعوا عنها وهم فى برية سينا فلم يختن موسى عليه السلام ابنه إلى أن قطعت زوجته صفورة غرلته استجلاباً لرضى الرب ومنعاً لنقمته ؛ فقد جاء فى سفر الخروج (٤) : وحدث فى الطريق فى المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه

ولما بلغ بنو اسرائيل كنعان أرض الموعد رجعوا إلى التختن فتختنوا بسكاكين من صوان فى مكان جلجال كما ورد فى يشوع ٥ (٢) : « فى ذلك اليوم قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بنى إسرائيل ثانية . فصنع يشوع سكاكين من صوان وختن بنى إسرائيل فى تل الغلف . وهذا هو ختن يشوع ايام . إن جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجال الحرب ماتوا فى البرية على الطريق بخروجهم من مصر . لأن جميع الشعب الذين خرجوا كلهم

مختونين . وأما جميع الشعب الذين ولدوا فى القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختتنوا لأن بنى إسرائيل ساروا أربعين سنة فى القفر حتى فنى جميع الشعب رجال الحرب الخارجين من مصر الذين لم يسمعوا لقول الرب الذين حلف الرب لهم ألا يريهم الأرض التى حلف الرب لآبائهم أن يعطينا اياها ، الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً . وأما بنوهم فأقامهم مكانهم فاياهم ختن يشوع لأنهم كانوا قلفا إذ لم يختنوهم فى الطريق . وكان بعد ما انتهى جميع الشعب من الاختتان أنهم أقاموا فى أماكنهم فى المحلة حتى برئوا . وقال الرب ليشوع اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر فدعى اسم ذلك المكان الجلجال إلى هذا اليوم »

ويختن اليهود أولادهم فى منازلهم وفى الكنيس ، فيقوم بهذه العملية والد الطفل ، أو رجل اختص بذلك يشترط فيه التدين وحسن السيرة وألا يؤجر على عمله ، بل يقوم به ابتغاء وجه الله . وكانوا يقطعون القلفة بسكين من الصوان أو من الزجاج أسوة ببنى إسرائيل ، ولكنهم استعاضوا الآن عنها بمشارط من الصلب . ويجب أن يسيل الدم وقت العملية ، فكانوا فيما سلف يمصون الجرح ليكثروا من نزول الدم ثم يقفونه بعد ذلك بالخمر يرشه المختن بفمه ، ولكن ذلك قد بطل . ومن عادتهم أن يدفنوا القلفة أو يحرقوها

ويعتبر اليهود الختان طهارة ، والطهارة عندهم إما ظاهرية وهى الختان ، أو باطنية وهى طهارة القلب كما ورد فى الكتاب المقدس — أرميا ٩ (٢٥)

ويقول المؤرخون إن هركانوس أجبر الأيدوميين على الختان ، وأن بطليموس أبيفانيس ختن ولديه أنطونيوس والأجيالوس

ولكن الامبراطور يوستينيانوس قد حرمه على الرومانيين ومن خالف ذلك يقتل . وقد حذا حذوه انطيوكوس ابيفانيس ، وعذب من أجل ذلك كثير من اليهود وقتلوا . وقد حرمه كذلك الامبراطور هادريانوس وقسطنطين

ولما جلا المسلمون عن بلاد الأندلس وقامت محكمة التفتيش بالقضاء على ما بقى من آثاره جرمت الختان فى أواخر عهدها

والعادة ألا يختتن المسيحيون ولو أن الكثير منهم يختتنون كما يفعل الأحباش . وقد ظهر فى إيطاليا فى القرن الثانى عشر الميلادى طائفة مسيحية اسمها « سركمسيسى » تأمر بالختان كما يدل اسمها على ذلك

والختان سنة كونية كتربية اللحية عند المسلمين وقد أفتى بذلك جمهور العلماء

ويتبع عادة الختان عادات أخرى على غاية من الغرابة . ففى بلاد البوسنه مثلاً يمنع الصبى من شرب الماء شهراً كاملاً

ويختتن الصبيان عند قبائل الكفار فى جنوب أفريقيا عند بلوغهم الحلم باحتفال رائع عظيم . فيضربون حتى تدمى جلودهم ، ثم يذر الفلفل الأحمر (الشطة) على جروحهم كى يختبر مقدار صبرهم على الألم وبعد ذلك يختتنون

ويرتدى شبان قبيلة المساى (وهم من السود بافريقيا الشرقية) عند ما يقرب وقت ختانهم ملابس النساء ، ويطلون وجوههم بالأبيض والأحمر ويتخضبون ويظهرون كل علامات الأنوثة اعتقاداً منهم بأن ذلك يبعد الشياطين عنهم فلا يصيبهم منها أذى

ومن عادة قبائل التاندى بشرق أفريقيا البريطانى أن يزور البنات الفتيان قبيل الختان ويقرضنهم ملابسهن وحليهن ليلبسوها ، فاذا تم الختان يرتدى الشبان المختتنون ملابس المتزوجات من النساء ويتبخترون بها بكل دلال النساء عدة أشهر حتى تبرأ جروحهم

ويختتن الشبان من قبائل السود باستراليا قبل زواجهم فيجبرون على الجرى فى الادغال ووراءهم القوم يستحثونهم على المثابرة ساعات عدة بالضرب الشديد حتى يسقطوا من الاعياء . فيوقد الرجال بعد ذلك ناراً ويختتنون الشبان بقطعتين من الزجاج ويتركونهم فى حراسة رجل أو امرأة من القبيلة إلى أن يلتئم الجرح ثم يكون لهم حق التزوج . والغريب فى أمرهم أن المختتن يلبس فوق وجهه نقاباً خشبياً (وجهاً من خشب) كيلا يراه أحد مدة أسبوعين

ومن عادة بعض هذه القبائل أن تلف القلفة فى قطعة من جلد الكانجرو . ثم تعطى لزوجته فتحتفظ بها طول حياتها

ومن عادة أهل أواسط استراليا أن يلعقوا ما يسيل من الدم وقت الختان أو يطلوا به صدورهم وجباههم لاعتقادهم أن ذلك يزيد فى قوتهم

وعندما يختتن قوم الأرونطا أولادهم يصرخ الرجال بأعلى